النشاط الثقافي في الوطن العربي

من مراسلي «الآداب»

لبنان

مسؤول يعي مسؤوليته ...

محاضرة هامة لمدير التربية اللبنانية

***

القى الاستاذ جوزيف زعرور ، المدير العام للتربية الوطنية ، محاضرة في « الندوة اللبنانية » ، يوم الاثنين ١٥ ايار ١٩٦٧ بعنوان « الوحدة عن طريق التربية والثقافة » .

وقد طرح المشكلة التربوية والثقافية في لبنان ، بشكل عميق جريء ، قلما عهدناه في مسؤولي الدولة . وكان اهم ما اشار اليه قضية اللغة ودورها في الثقافة وفي تعزيز الوحدة الوطنية ، ودعا الى تدعيم اللغة العربية التي هي اللغة الام ، قائلا انها « الخميرة الاولى لوحدة الثقافة وبالتالي لوحدة الشعب » .

اما فيما يتعلق بالتربية ، فقد انتقد الاوضاع التربوية الراهنة ، مناهج وتطبيقات على السواء . ومما قاله في هذا الصدد :

« ان بنية التعليم عندنا ما تزال تقليدية ، وهذا تجسده ، خاصة، مناهجنا التربوية . ان ثمة صلة قائمة باستمرار بين النجاح في المدرسة والانتماء الى طبقة اجتماعية ، ان في المدينة او في الريف . ان الطريقة المنهجية السائدة وجدت من اجل مستويات عقلية خاصة تمتلك مسبقا رصيدا من المعرفة . والواقع ان مناهجنا تحول التلميذ الى مستهلك للمعلومات . فهي تلقنه هذه المعلومات بشكل تجريدي في مجال الاداب والعلوم على السواء . ويتجلى قصور هذه الطريقة في ناحيتين : في عدم تلاؤمها مع طاقات التلميذ العقلية ، المنفتح على المعطيات الحسية من جهة ، وفي تكوين ذهنية التلميذ بعيدا عن الملاحظة والتجربة . قد تؤدي هذه المناهج الى اعداد نخبة ، لكنها لا تؤدي اطلاقا الى اعداد شعب ، وبالتالي لا تؤدي الى صهر الاطراف في وحدة متينة » .

ثم اشار الى مشاريع المناهج التي تعد في هذه الاونة ، فقدم حولها الملاحظات التالية :

التربية اولا تقتضي تكييفا مع المعطيات الوطنية . هذا يفترض ان توحد المناهج التعليمية بحيث يتم اعداد المواطن في اطار التحسس الوطني الذي يستمد معطياته من تاريخنا وتراثنا ، بحيث لا يبقى هذا التاريخ غريبا عن الاجيال الطالعة ، وهكذا تصبح التربية وعيا للمقتضيات الوطنية وتبعات الانماء المقبلة .

ولقد جددنا ثانيا برامجنا العلمية من رياضيات وعلوم فيزيائية وكيميائية وطبيعية . آملين ان نتجاوز مرحلة التخلف ونفتح لعلماء المستقبل في لبنان آفاقا للخلق العلمي .

اما فيما يتعلق ثالثا بالعلوم الانسانية ، فقد اولياها دورها الاساسي محافظين على التراث الفكري العربي ، مؤكدين في الوقت نفسه ضرورة الانفتاح على قيم الثقافة الانسانية الاصيلة .

وهنا يجدر التساؤل : هل نتوصل بمناهجنا الجديدة الى اعداد المواطن اللبناني اعدادا صالحا ؟ عملية اعداد البرامج عملية متنوعة وشاملة . يجب ان يشترك فيها المربي والاقتصادي وعالم الاجتماع وعالم الاحصاء وعالم النفس . هو عمل مجموعة قبل ان يكون عمل فرد ويرمي دوما الى الهدف الامثل .

لذلك وبما ان المناهج من حيث انها تتصل بالمستقبل ، يجب ان تكون دائما موضع دراسة واعادة نظر ، بحيث تتكيف ، وتتطور بالنسبة لتطور البلاد الاجتماعي والاقتصادي .

وهذا ما اكدناه في مشاريع المناهج الجديدة . وستنشأ في وزارة التربية لجان اختصاص دائمة مهمتها التأمل والتفكير في المناهج .

اما فيما يتعلق بالثقافة فقد قال الدكتور جوزيف زعرور ما خلاصته :

الكلام على دور التربية في الوحدة الوطنية ينقلنا بالطبيعة الى الكلام على دور الثقافة في هذه الوحدة ، لكن لنبدأ حديثنا عن الثقافة بذكر بعض الحقائق العملية .

تفيدنا العلوم الانسانية ، ان فعل الاراء المسبقة عند الشخص ، يتضاءل نبعا لتكاثف الثقافة الشخصية . فالتعصب الطائفي والديني والسياسي يماشي الجهل والمواقف التي تنتج عنه . واكيد ان التعصب والرأي المسبق ، ينتجان عن اسباب اخرى غير الاسباب الثقافية . فوحدة الشخص النفسية تمثل هنا دورها . وتدل التجربة في أي حال على أن تعميم التعليم يضعف حدة التعصب .

لكن هل يمكن ان نعتبر خريج الجامعة مثقفا ؟ التربية بعد آفقي ، اما الثقافة فبعد عمودي . كل مثقف اذن يقوم بفعلين : اعادة النظر في كل شيء حوله ، والتخطي الدائم .

مرة ثانية نتساءل : هل كل متعلم ، مثقف ؟ كلا ، بالتأكيد . فواقعنا واقع تعليمي لا ثقافي ، بوجه الاجمال ، آي اننا ما نزال في طور الجمع والتنسيق ، ولم نصل بعد الى طور الاختيار العميق ، والخلق . ان ما نسميه اليوم ثقافة ، هو ثقافة استهلاكية لا ابداع، هو في الغالب، معلومات وكتب وكلمات ، وليست مواقف ورؤى ونظرات ، وفي هذا يمكن سر تفتتنا الثقافي وبالتالي ما يضعف وحدتنا .

واول ما يلاحظ هنا ، هو أن الثقافة الواحدة ، تقتضي لغة واحدة . فمن الواجب ، بل من الطبيعي ان يتكون الاطفال اللبنانيون جميعا ، بلغتهم الام ، وهي اللغة العربية . ومن الطبيعي ان تكون هي لغتهم الاولى . في هذه اللغة تتكون ذهنيتهم وتتكون بالتالي شخصيتهم. انها الخميرة الاولى لوحدة الثقافة وبالتالي لوحدة الشعب .

ان اغفال هذه الناحية هو الذي يجعل حياتنا الواحدة تنقسم الى جزر بحسب اللغة . والحوار بين هذه الجزر ليس حوارا ثقافيا بقدر ما هو حوار تفرضه الحياة اليومية ، ويفرضه العيش المشترك . ان كثيرا من اللبنانيين يجهلون العربية لا لانها لغة متخلفة كما يزعم البعض، بل لانهم يجهلونها . وكثيرون بين اللبنانيين من يقرأون الفرنسية والانكليزية وحسب ، فليس هناك لغة واحدة مشتركة بين المثقفين اللبنانيين . وهذا يعني ، ان ليس هناك ثقافة واحدة ، ولا شخصية واحدة . وهذا ما يفسر التفتت الذي اشرت اليه . لا بد اذن من لغة تربوية ، ثقافية ، مشتركة ، واحدة . وهذه اللغة ، هي بالطبع ، اللغة العربية . غير أن ذلك لا يعني في اية حال اهمال اللغات الاجنبية ، بل يعني على العكس ضرورة اتقان لغتين او اكثر . ذلك ان اللغة الاجنبية بالنسبة الى اللبناني وفي لبنان ، ليست لغة تضاف الى حياته ، بقدر ما هي لغة تتجاوب وطبيعة حياته . ان اللغة الاجنبية ، بعد انساني ، حضاري ، اجتماعي ، اقتصادي في شخصية لبنان » .

وتحدث عما سماه « المسكونية اللبنانية » فقال انها تقدم « وضعا فريدا في العالم ، وهي تضع اللبناني ، كل لبناني ، امام مسؤولية فريدة هي كذلك .

ان العالم كله يكاد يكون موجودا بكونه الصغير في لبنان . انه خلاصة روحانيتين توجهان بابعادهما معظم المسكونة ، وهو اذن رمز الوحدة بين هاتين الروحانيتين وفي الوقت نفسه رمز مسكوني .

اليس عجيبا اذن ان يضيع هذا الرمز في هموم الكرسي والحي والطائفة . اليس عجبا الايحاول اللبناني ان يفهم اللبناني الاخر بمحبة شاملة ؟ اليس عجبا ان يسكن اللبنانيون في بيت واحد ، عائلة واحدة ، والا يتحادثوا وجها لوجه بصدق كلي وانفتاح كلي ؟

الظروف التي يخيل للناظرين من خارج ، أن لبنان فسيفساء متفككة ، يجب ان نتجاوزها ليس من اجل ابنائنا في المستقبل وحسب، بل من اجلنا نحن كذلك . ان كلا منا يواجه تحديا مصيريا ، هو ان ينهض بقيمه الروحية ويؤالف بينها وبين القيم الروحية عند مواطنه الاخر » .

وختم محاضرته بالاشارة الى ان « عهد الانتداب في لبنان ... لم يكن يرمي اساسا ، لا الى تربية وطنية ، ولا الى تثقيف قومي » .

ودعا « المسؤولين في الحكم والمسؤولين في الشعب » الى العمل على خلق المناخ الملائم لتكون الثقافة اللبنانية الصحيحة التي وصفها بانها « بعد عمقي » ـ اي ابداع اصيل . وما لم تنشأ هذه الثقافة « فلسوف يبقى لبنان اسير التبعية الثقافية ، والتبعية الثقافية اشد خطرا من التبعية السياسية » .

هذا ملخص لمحاضرة مدير التربية الوطنية في لبنان ننشره هنا ونحن نحيي هذا المسؤول الذي يعي مسؤوليته وندعمه في السبيل الذي يسلكه لتعزيز الثقافة والتربية في لبنان ولتوجيههما الوجهة الصحيحة.

... لم تمت « حوار » !

... واخيرا أعلن توفيق صايغ رئيس تحرير مجلة « حوار » موت مجلة « حوار » . لماذا ؟ لانه اكتشف في الاسبوع الثاني من شهر أيار عام ١٩٦٧ أن مال المنظمة ، منظمة حرية الثقافة التي تمول « حوار » هو « مال ملوث » لان المخابرات الاميركية هي التي كانت تقدمه .

أعلن توفيق صايغ هذا كله ، دفعة واحدة ، في بيان طويل نشرته بعض الصحف اللبنانية واهتمت بابرازه جريدة « النهار » التي نذكر ، بالمناسبة ، أنها هي التي تمول مجلة « شعر » التي أعلن عن قرب صدورها منذ بدأت الانباء تتحدث عن دور المخابرات الاميركية في تمويل بعض المنظمات والجهات ...

وتوفيق صايغ الذي أعلن هذا النبأ « الفاجع » بنعي مجلته المأسوف على شبابها الغض ، انما اكتشف هذه الحقيقة في الاسبوع الماضي فقط ... اما الادلة والبراهين التي قدمتها كثير من الصحف الوطنية والمجلات ، ومن بينها « الاداب » ، فلم تكن تستحق منذ خمس سنوات أن يلتفت اليها، لانها مجلات متفرضة وتخشى المنافسة ، على حد تعبير لويس عوض الذي لم يكتشف هو أيضا حقيقة منظمة حرية الثقافة الا منذ بضعة أشهر فكتب يطبل ويزمر ويتحدث عن غضب الصحافة العالمية عليه بلهجة لا تخلو من التواضع ! ...

ان توفيق صايغ اذن يقوم بعمل بطولي رائع يستحق عليه وساما رفيعا ... أو يستحق على الاقل مبلغ العشرة الالاف ليرة لبنانية التي طالبتني بها منظمة حرية الثقافة حين أقامت علي دعوى قدح وذم وافتراء ، يوم كتبت في احدى صحف بيروت أن مصدر تمويل «حوار» هو مصدر مشبوه . أقول أن هذه العشرة الاف يستحقها توفيق صايغ تعويضا له عن الخسارة الفادحة التي لحقت به من ايقاف « حوار » ، هذه المجلة التي لم يوقفها حضرته الا بعد أن استقال ستيفن سبندر من رئاسة تحرير زميلتها في الروح « انكونتر » والا حين علم أن الجمعية العمومية للمنظمة وزعت ، كما يقول هو نفسه في البيان ، نشرة أعلنت فيها أن الانباء عن مساعدة الوكالة الاميركية ماليا هي أنباء صحيحة . ولا ندري ماذا كان ينتظر توفيق صايغ أكثر من ذلك ليقدم استقالته ! ثم اننا لا نفهم حقا بأية صفة يعلن وقف « حوار » ! ان استقالة رئيس تحرير مجلة لا تستتبع بالضرورة ايقاف هذه المجلة . أفلا يحق لنا أن نعتقد بأن ايقاف المجلة ، انما كان موعزا به من قبل المنظمة وان الايقاف هو الذي يستتبع بالضرورة الاستقالة التي هي في هذا المجال عبارة عن اقالة ؟!

واذا أردنا الان أن نتحدث بلهجة أكثر جدية ، أمكننا أن نقول أن توفيق صايغ يعتبر القراء العرب من السذج الذين تنطلي عليهم أمثال قوله : « ان المجلة لم يدر ببالها للحظة واحدة أن أي درهم يصلها منها مصدره مصدر رسمي علني أو سري منبثق عن أية حكومة كانت » .

ثم ان رئيس تحرير مجلة « حوار » يتحدث في بيانه عن التسميم الفكري الناتج عن خديعة المخابرات الاميركية ، كأن المقالات الكثيرة التي نشرتها « حوار » كانت بعيدة عن أي تسميم فكري !

غير أننا لا بد أن نشيد بعد ذلك بروح التواضع الجم الذي تجلى في بيان رئيس تحرير «حوار » عما أدته هذه المجلة حين قال انها باعدادها السبعة والعشرين وكتبها الثلاثة « سجل للمنجزات العربية في سائر حقول الثقافة في خمس سنين ودليل ناصع على امتياز المجلة ورفعة مستواها واستقلالها » . نقول أنه تواضع جم بالنسبة لما نشرته المجلة من أعمق الابحاث وأروع القصائد وأجمل القصص التي كتبها أكبر أدباء العالم العربي الذين لم يمتنع أي منهم عن المشاركة في تحرير « حوار » والذين كانوا جميعا ، بلا استثناء ، مبهورين بالدولارات تقدم لهم تعويضا عن مقالاتهم !

بقي من بيان نعي « حوار » أمل رئيس تحريرها السابق بأن يكون رئيس تحرير لها لاحقا ... حين يستجيب « بعض الممولين العرب » لدعوته من مد يد المعونة لبعث « حوار » من جديد . ويبدو انه يعز على الاستاذ توفيق صايغ أن يتخلى بسهولة عن فكرة التمويل هذه ... وهو هنا أيضا يستهين بالقارىء ويستغفله حين يظنه أبسط من أن يشتبه بمبدأ التمويل . من هم هؤلاء الممولون العرب الذين يتوجه اليهم توفيق صايغ ؟ ان كان يقصد بعض الادباء فقد سقط دون هدفه بلا شك . لان أي أديب ، مهما كان وضعه مرتاحا ، هو أضعف من أن يمول مجلة لا يعرف من أمرها الا ان توفيق صايغ هو رئيس تحريرها ، وأنها تتطلب نفقات محترمة لا يمكن أن يغطيها مردود بيع الاعداد والاشتراكات فيها .

بقي من الممولين العرب أولئك الذين لا يعرفون ماذا يفعلون بالمال الذي يتدفق عليهم . فهل يمكن لرئيس تحرير « حوار » اللاحق أن يكون واثقا منذ الان من مصدر تمويل هؤلاء الممولين العرب ؟ أم أنه يعتقد أنه لا يزال في عصرنا الحاضر أغنياء مهووسون بالادب وهم مستعدون لان يخلعوا على رئيس التحرير واعضاء هيئة التحرير والمراسلين والمندوبين المقيمين والمتجولين خلعا سنية تذكر بعهود الخلفاء العباسيين، حماة الادب ورعاة الفنون ؟

ان رئيس تحرير « حوار » السابق يأسف على شيء واحد هو أن لا يمكنه تقاعس الممولين العرب من اعادة اصدار « حوار » . ولكننا نستطيع أن نقول له بكل تواضع أن أسفه في غير محله ونؤكد له أن الممولين العرب كثيرون ، ولكن المهم أن يتأكد هذه المرة أنهم ليسوا تابعين للاستخبارات الاميركية ! ...

انه ليس بحاجة لان يتشاءم أو ييأس من أن تحل محل حوار « حوارات » اخرى .. ألم نشهد موت زميلة لها نراها تبعث الان بسحر الممولين العرب الذين يستجديهم هو بالذات ؟

ع.م.ا.

بيان الادباء والمثقفين اللبنانيين

***

بدعوة من مجلة « الاداب » و « النادي الثقافي العربي » في بيروت ، اجتمع عدد كبير من ادباء لبنان ومثقفيه مساء ٢٦ ايار ١٩٦٧ واصدروا البيان التالي :

في هذه الفترة الخطيرة من تاريخنا ومشاركة في التعبئة الوطنية العامة وتجاوبا مع مبادىء الحق والعدالة التي تقوم عليها قضية تحرير فلسطين والتزاما بحقوق الانسان الاساسية وحق الشعوب في تقرير مصيرها ، نحن ادباء لبنان ومثقفيه ، على تنوع اتجاهاتنا ، نعلن :

اولا ـ ان قيام اسرائيل في فلسطين واستمرار وجودها عمل عدواني مناف لكل شرع وحق وان حقوق الفلسطينيين في استعادة وطنهم وسيادتهم عليه حقوق ثابتة لا يمر عليها الزمن .

ثانيا ـ ان اسرائيل قاعدة عدوان على البلاد العربية وعامل كابح لحركة التحرر والتقدم العربيين ونضال العرب ضدها ان هو الا نضالهم في سبيل التقدم .

ثالثا ـ ان اسرائيل خطر محدق بلبنان يهدد سلامته وكيانه ، فمشاركة لبنان في معركة فلسطين هي دفاع عن لبنان ومستقبله كما انه تضامن مع باقي الشعوب العربية في استعادة الحق السليب .

رابعا ـ اننا نحيي مجلسنا النيابي في موقفه الاجماعي وندعم السلطات اللبنانية في موقفها المشرف وفي خطواتها نحو تعبئة الجيش والشعب وتسليح القرى الامامية وتمكين اخواننا النازحين من تأدية واجبهم المقدس . ونحيي جيشنا الباسل الذي يرابط على الحدود ونؤكد له ولاءنا الكامل وثقتنا بقدرته على حماية الوطن والاسهام في الدفاع عن الحق العربي في فلسطين .

خامسا ـ اننا نوجه تحية التأييد والاكبار الى الجمهورية العربية المتحدة ورئيسها جمال عبد الناصر والى الجمهورية العربية السورية في الموقف الحازم من التهديدات الاسرائيلية الغاشمة ، كما نحيي الدول العربية الاخرى التي جندت نفسها لخوض المعركة المشتركة .

سادسا ـ اننا نؤيد حق الجمهورية العربية المتحدة في طلب سحب قوة الطوارىء الدولية وفي اقفال خليج العقبة في وجه السفن الاسرائيلية والسفن التي تحمل مواد استراتيجية موجهة الى اسرائيل .

سابعا ـ اننا نشجب سياسة الدول لا سيما الكبرى منها وعلى رأسها الولايات المتحدة الاميركية التي تحمي اسرائيل وتنكر حقوق العرب في قضية فلسطين وتهدد باتخاذ التدابير الزاجرة الجائرة ضد العرب . كما نشيد بموقف الدول التي تدعم الحق العربي وتدافع عنه وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي .

واننا ، نحن الادباء والمثقفين اللبنانيين ، اذ نعلن ذلك يشرفنا ان نجند انفسنا للاسهام بالواجب الوطني الكبير .

وفي الوقت نفسه نهيب بجميع حملة الاقلام في لبنان ان يواصلوا بذل طاقاتهم لتعبئة الشعب وبث روح النضال في النفوس كما نطالبهم، مقيمين ومغتربين ، بان يتابعوا رفع اصواتهم في المحافل الدولية والاوساط العالمية دفاعا عن حق عرب فلسطين والعرب جميعا .

كما اننا نناشد اهل الفكر في العالم بان يرفعوا اصواتهم دفاعا عن الحق المغتصب ويقفوا بوجه الاعتداء والدعاية الصهيونية الخداعة انسجاما مع رسالتهم الانسانية ، فالصهيونية ، واسرائيل تجسيد لها، دعوة استعمارية عنصرية .

ان الاديب والمثقف اللبناني ، طوال تاريخه المجيد ، لم يتخلف عن واجبه في المعارك الوطنية والساعات الحاسمة ، وهو يجدد الدليل اليوم على انه حادي الركب ورائد الشجاعة والاقدام في معركة المصير الكبرى .

التواقيع :

زاهية قدورة ، نور سلمان ، لور مغيزل ، وداد قرطاس ، زاهية ايوب ، حسن صعب ، رينه حبشي ، ميشال اسمر ، هشام نشابة ، عبد الله نحود ، جميل جبر ، بهيج عثمان ، سهيل ادريس ، رئيف خوري ، حسين مروة ، عبد اللطيف شرارة ، ادونيس ، خليل رامز سركيس ، محمد كشلي ، ميخائيل نعيمة ، جورج حاوي ، مروان اسكندر، نزار الزين ، ميشال عاصي ، فرانسوا خوري ، منح الصلح ، منير عطية، فؤاد نجار ، زيد الزين ، جورج حنا ، احمد مكي ، الياس الفرزلي، احمد ابو سعد ، علي سعد ، كامل العبدالله ، محمد مجذوب ، انطوان كرم ، باسم الجسر ، كميل ابو صوان ، ليلى بعلبكي ، ليلى عسيران ، ميشال سليمان ، جورج ديب ، صبحي الصالح ، فوزي ابو دياب ، فؤاد الخشن ، عايدة ادريس ، هدى عبد الله ، سليمان نجار ، جوزف مغيزل.

الجمهورية العربية المتحدة

مسرحية « المسير الطويل » الفاشلة ...

***

« صدقوني اذا أردتم الحقيقة من غير زيف أو بهتان .. فضعوها على المسرح وسلطوا عليها آلاف الاضواء . بعدها ورغم الاضواء الباهرة ستطل عليكم الحقيقة عارية .. وستكشف أصالة العمل والانسان » .

كلمة قالها ألبير كامو يوما . واستمعت أمس الى صداها يتردد في نفسي ، وأنا أشاهد مسرحية « المسير الطويل » للكاتبة اللبنانية « هدى زكا » .. فان الاخراج الفذ ، والديكور الرائع ، والموسيقى الساحرة ، والاداء المتألق ، كل هذه العوامل لم تستطع مداراة رداءة النص الذي بدا كقزم يخب في رداء عملاق مهيب ، حتى اضطر المسؤولون لنقله الى المسرح الفرعوني بالجزيرة ، بعد أن وصل ايراده على مسرح « الجمهورية » الى جنيه واحد في أحد الايام ، ونصف جنيه في يوم آخر !..

واذا كنا نرفض اعتذار مؤسسة المسرح اذ تقول انها قبلت هذا النص ليكون كما قيل لفتة ممتازة تستحق التقدير باعتبار انها أول مرة يقدم فيها نص من أحد الاقطار العربية على المسرح المصري ، وهو أمر له دلالته في هذه الفترة من حياتنا ، فان رفضنا بالطبع ينبع من ايماننا بأن وطننا العربي الكبير لم يعدم كتابا ممتازين كان يمكن لانتاجهم الجيد أن يخدم القضية التي تدعو لها مؤسسة المسرح اذا كانت تهمها حقا الى هذه الدرجة !

كذلك فنحن نرفض تبريرات مخرجنا الفذ كرم مطاوع ، صاحب الفرافير ، الذي ساقها ليعتذر عن قبوله اخراج هذا النص بحجة انه أجبر على ذلك . من صاحب المصلحة في اجبار كرم مطاوع على اخراج نص كهذا ؟ ما معنى هذا ؟

كذلك فنحن نرفض الاقتناع بندم الممثلة القديرة محسنة توفيق التي عبرت خلف الكواليس عن عزمها على التكفير عن ذنبها بتمثيل هذا الدور الذي أساء اليها بانفضاض جمهورها عنها حتى انها تنوي الرد على النقاد الذين أحاطوا تلك المسرحية بالعطف الزائد . تقول محسنة انها بذلت كل طاقاتها لاحياء هذا الرميم .. ولكن .. ان دورها قد حول مفهوم الممثل من سيزيف السعيد الى سيزيف التعيس .. لانها تلعب كل ليلة دورا تمقته ، ومع ذلك فهي مسوقة الى تمثيله وهي مضطرة الى معاناة أشق الاحساسات لعلمها بأنها سوف تلعب نفس الدور في الغد .

معذرة لهذه المقدمة الصاخبة .. ولكن سوف يعذرني كل من ساقته الظروف لتجرع هذه المسرحية .

ولكن أي مسرحية هذه التي ينتصل منها كل من شارك فيها ؟!

المسرحية : مجرد نية لمعالجة قضية المرأة في محاولتها للوصول الى الحرية (في نظر هدى زكا) وذلك من خلال ناهدة بطلة المسرحية ..

ناهدة هذه (كامنية للمؤلفة) فتاة طموح عنيفة الحس جياشة العاطفة مشبوبة الخيال .. تضيق بالحدود التي رسمت لاختها الكبرى التي تزوجت وأنجبت وارتضت حياة المرأة العادية . انها ، أي ناهدة ، تريد أن تتخذ خطا مغايرا ، تريد أن تدخل الجامعة وأن تحقق وجودها. ليس في طفل ولكن في عمل فني . وهي في سبيل ذلك تتمرد على ارادة أبيها وتنتصر في صراعها معه . غير أن ذلك لا يتم بقوة منطقها أو صلابتها كما تتوقع ، بل بالمداعبات العائلية بين والديها .

كنت أتمنى ـ كفتاة مثلها ـ لو أشاهد العقبات التي قابلتها كانسانة في المجتمع الجامعي الفسيح وفي المدينة . لكني اصطدمت بتخاذلها الواضح وتناقض شخصيتها وتنقلها بين شخصيتي الانسانة والفنانة دون هدف واضح . ويبدو تخاذلها ذاك حين ترفض أن تعرف رأي صديقها الصحفي في المرأة ـ وهو رأي رجعي بالطبع ـ بل وتدعوه الى الصمت عندما كان يحادث صديقتها . وعندما يخطبها وتكون مضطرة الى المشاهدة عن قرب . انها تكتشف استحالة التقائهما ، وتعود الى حبيب طفولتها الذي عاد من اميركا ببعض الاراء المتحررة عن المرأة . بل انها تتزوجه رغم اعتراضه على أبسط مظاهر التحرر التي هي عند (هدى زكا) علبة السجائر الموجودة في حقيبتها ، متناسية ان حبيب طفولتها لم يعد من الخارج بأكثر من قشرة سطحية من الحرية وليس بجوهر الحرية ذاتها .

ومن أبرز الملاحظات على هذا العمل ان المؤلفة مصابة بفقد الذاكرة وذلك بين السطر والاخر . وهذا يجعلك تتمزق وتتخبط ، وتفقد الثقة بنفسك ثم بمؤسسة المسرح التي قبلت هذا النص . فهي تورد فكرة في سطر ، ثم تناقضها بالتمام في السطر الذي يليه . فعندما تصارح ناهدة أمها برغبتها في دخول الجامعة تشهق الام من هول ما سمعت . ومع ذلك نجدها في الجملة التالية تسوق لزوجها الحجج والبراهين على ضرورة تعلم الفتاة ، وكأنها امرأة أخرى غير تلك التي كانت تشهق منذ دقيقة واحدة !

وعندما تلتقي ناهدة بصديقتها ، تشكو لها الصديقة من وحدتها مع والدها والباني الشاهقة . ثم نجدها في الجملة التالية تعاني من ازدحام المدينة ... نجد الام ترغب ابنتها في زيارة منزل سعيد خطيب طفولتها العائد من اميركا لكي تستعيده الى شباكها .. وعندما يتحقق هذا التوقع أو يصح نجد الام تضرب على صدرها لان « سعيد » لا يكبرها بسوى عام وهذا غير كاف ...

كذلك عندما تقف ناهدة تلوم كل النساء اللائي سبقنها في مسيرة الحرية ! وذلك لانهن قطعن هذا الطريق وارتضين الزواج خوفا من المجتمع وهروبا من الوحدة . ولا يمكن أن يدعي أحد ان هذا التناقض تقتضيه أحداث المسرحية في تطورها ونموها (فهي لم تتطور اطلاقا) .

وفي المشهد الاخير بينها وبين زوجها ، يصل هذا التناقض الى أقصى درجاته : تقول ناهدة لزوجها ان الوحدة هي الخلاص ، فيعرف سعيد ان حياتهما الزوجية قد انتهت ، واذا بها تقبل عليه ، واذ يستوضحها كلمتها الاولى تقول له : « انه لم يفهم ما قصدت اليه » !

والحقيقة أن زوجها المسكين .. ليس هو وحده الذي لم يفهم ما قصدت اليه ، وانما شاركه في ذلك الجمهور كله (أعني الذين شهدوا العرض) .

أقول ذلك رغم كتابات بعض النقاد الذين جاملوا لبنان في شخص (هدى زكا) على صفحات الجرائد .. أما جلساتهم التي ليست للنشر، فكانت سخرية بالمسرحية ، وبجملها المصطنعة التي وصفت على صفحات الجرائد بأنها أنيقة ...

من أين تبدأ هدى زكا في معالجة قضية المرأة ؟ انها تبدأ من الصفر .. من عصور الحريم .. فكيف تتحدث عن مشكلة الدخول الى الجامعة ، وفي الجامعة اليوم بنات أعتى العائلات رجعية وقصور ذهن ؟.. انها تتكلم عن فارق السن وكأنه لم ينشر على صفحات المجلات النسائية انه غير مطلوب .. أن هدى زكا تتصور انها رائدة ومصلحة.. ولم يفتها الا مناقشة مشكلتي (الزار) والخاطبة .. انها تكتب عن مشكلة حرية المرأة كأن لم يكتب ابسن « بيت الدمية » منذ أكثر من مائة عام .. ولم يتردد صفقة الباب خلف نورا في آذان كل امرأة في العالم ، او لم تكتب لطيفة الزيات في شرقنا العربي « الباب المفتوح » منذ حوالي خمس سنوات .

من العسير فعلا كما قالت محسنة توفيق ان اناقش النص معها بطريقة جادة ، لكن ليس من العسير أن نلوم كل من تضافروا لتقديم هذا العمل الرديء الى الجمهور .

وليس من التعسف كما قال (امير اسكندر) في الصفحة الادبية ـ وبعد أن أمطر المسرحية بوابل من التقريظ حتى كاد يقول شعرا ـ « ان نطبق على هذا العمل المقاييس الدرامية فنقول ان عقدة المسرحية مفككة وان الصراع بين البطلة وسائر الشخصيات ضعيف واهن . وان خطوط الشخصيات باهتة فلا فرق بين سعيد والاب ورائف ، وان القضية التي تعرضها المسرحية ليست واضحة المعالم ، محددة الابعاد ، وان حوارها يغلب عليه الطابع الغنائي الذي يضعف ولا يقوي المسار الدرامي للمسرحية . ذلك لان النظر الى هذا العمل من خلال تلك المقاييس يدفعنا الى التشدد في الحكم فضلا عن انه يفقدنا الاتجاه ! فهذا العمل هو باكورة انتاج كاتبة لم تتعد الثامنة والعشرين ربيعا » .

وربما كان رجاء النقاش منصفا حين جامل المؤلفة كضيفة لكنه لم يفته آن يقول : « الحقيقة ان جوانب الضعف الفني والفكري في المسرحية أكثر من الجوانب الاخرى (يقصد جوانب الجاذبية الفكرية والفنية) وأخطر ما تعانيه هذه المسرحية من الناحية الفكرية هو عدم وضوح مفهوم الحرية عند الكاتبة . ان المؤلفة تنادي هنا بحرية المرأة وتصرخ من أجل هذه القضية صرخات عالية . ولكن عندما نحاول أن نفهم معنى الحرية التي تدعو اليها المؤلفة على لسان البطلة نجد ارتباكا في تحديد هذا المفهوم : هل الحرية في نظر الكاتبة أن تسكر المرأة وتدخن السجائر ؟ (الكلام لرجاء النقاش) هل الحرية أن تخرج على أي نظام عادي للحياة اليومية فتسهر حتى الفجر وتنظر الى زوجها العامل نظرة دهشة وعدم اهتمام ؟ ان مفهوم الحرية كما يبدو لنا في مسرحية « المسير الطويل » هو مفهوم قاصر ، مجرد ، شكلي . والواقع ان هذا المعنى للحرية عند المرأة يتكرر في الادب الذي نقرأه لبعض كاتبات لبنان ، وهو مفهوم سطحي لا قيمة له لانه مستمد من مقاهي بيروت وسهراتها ومستمد من الاحساس المصطنع الذي تحمله بعض فتيات بيروت في الرغبة في التحرر والانطلاق وهو احساس مصطنع لانه ينبع من فراغ في الوقت ومن انعدام أي ارتباط حقيقي بالمجتمع وحركته الصحيحة .

وهذا المفهوم للحرية بسذاجته وسطحيته هو صدى للسهرات الباريسية والتقاليد التي تنتشر هناك في بعض الاوساط فيتردد صداها في بيروت .

وأنا أقول كفتاة ، قبل أن أقول كناقدة ، ان هدى زكا بمسرحيتها تلك قد ساهمت في انتكاس مسيرة المرأة الى الوراء أميالا وأجيالا ، بتلك الثرثرة والمهاترات التي لا تفضي الا الى الملل .

ان الكلام الذي حشدته في المسرحية لا يحرك ساكنا . العمل وحده والعمل الجاد هو الذي يجبر الرجل على احترام المرأة واحترام مشاعرها ورغباتها .

كان على « ناهدة » بطلة هدى زكا أن تلتفت الى ان مطالب المرأة هي ان تتساوى بالرجل في العمل.وفي السلوك . فهل كان سعيد الزوج يتصرف مثلما كانت تفعل ؟ وهل الحياة حب وغزل ام انها حب وعمل ؟ (*) .

القاهرة — عايدة الشريف

(*) أخبرتني اليوم الممثلة محسنة توفيق ان المسرحية قد أوقفت أمس ، لان عدد الحضور كان ... واحدا فقط ، أعيد له ثمن تذكرته وانصرف الممثلون الى بيوتهم !